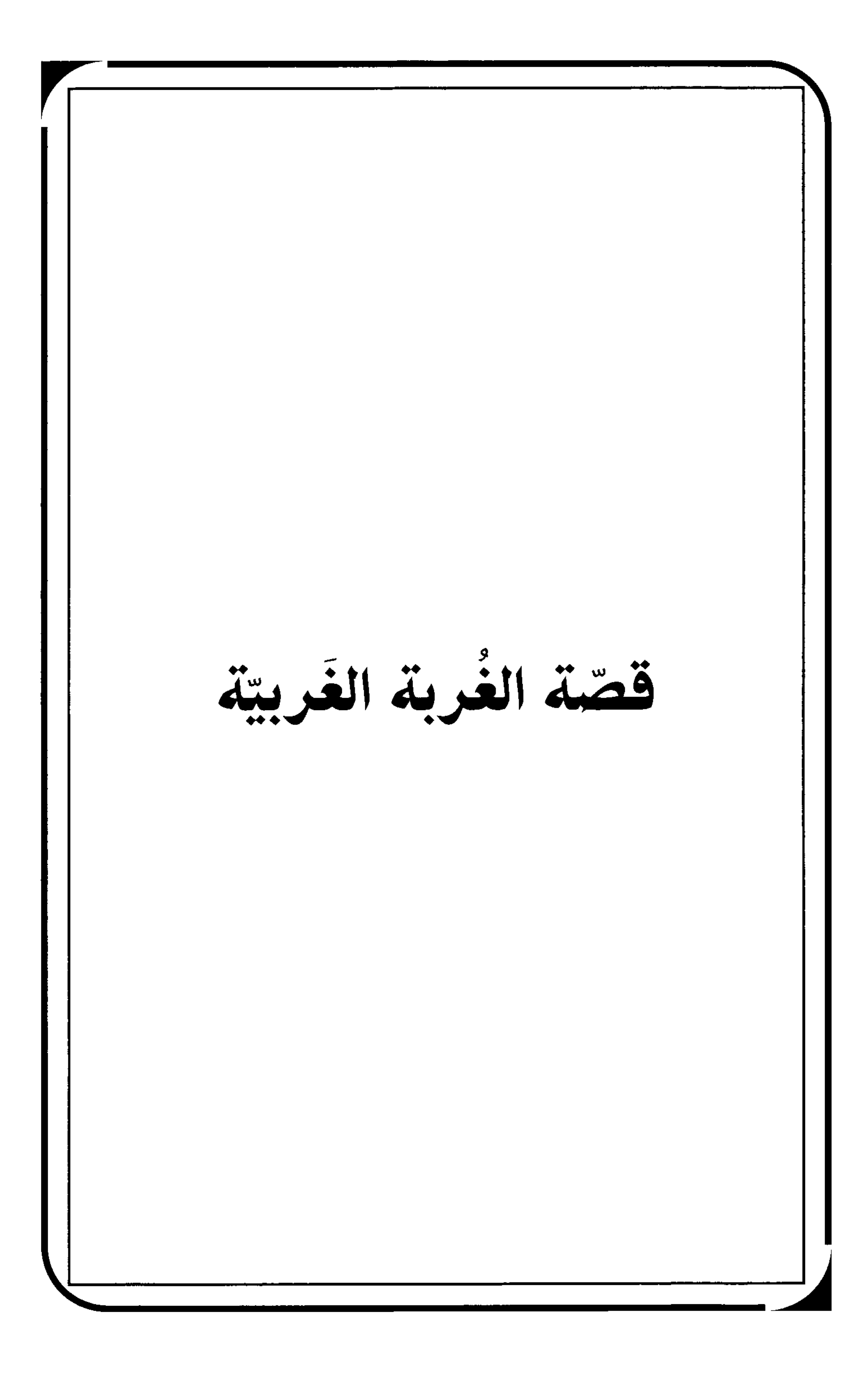


قصّة الغُربة الغَربيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العارف فريد عصره وشيخ دهره الشيخ شهاب الدين السهرورديّ قدّس الله روحه ونوّر ضريحه:

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والسلام على عباده الذين اصطفى خصوصاً على سيدنا محمّد المصطفى ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فإنّي لمّا رأيتُ قصّة «حيّ بن يقظان» صادفتُها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانيّة والإشارات العميقة متعرّيةً من تلويحات تشير إلى الطَور الأعظم الذي هو ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1] المخزونة في الكتب الالهيَّة، المستودعةُ في رموز الحكماء، المخفيّة في «قصَّة سلامان وأبسال» التي رتّبها صاحب قصّة «حيّ بن يقظان»، وهو السرّ الذي ترتّب عليه مقامات أهل التصوّف وأصحاب المكاشفات، وما أُشير إليه في رسالة «حيّ بن يقظان» إلاّ في آخر الكتاب حيث قيل: «ولربّما هاجَرَ

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٤.

إليه أفرادٌ من الناس» إلى آخر الكلمات. فأردتُ أن أذكر منها شيئاً في طرز قصّةٍ سمّيتُها أنا «قصة الغُربة الغربيّة» لبعض إخواننا الكرام، وعلى الله أتوكل فيما أروم.

(١) **مبدأ القصّة**: لمّا سافرتُ مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر إلى بلاد المغرب، لنصيد طائفةً من طيور ساحل اللُجّة الخضراء،

(٢) فوقعنا بغتةً في ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[١] أعني مدينة قَيرَوان.

(٣) فلمّا أحسّ قومُها أنّا قدمنا عليهم فجأةً ونحن من أولاد الشيخ المشهور بالهادي ابن الخير اليمانيّ،

(٤) أحاطوا بنا، فأخذونا مقيَّدين بسلاسل وأغلال من حديدٍ، وحبسونا في مقر بئرٍ لا نهاية لسمكها.

(٥) وكان فوق البئر المعطّلة التي عُمّرت بحضورنا قصرٌ مشيَّدٌ وعليها أبراج عدّة.

(٦) فقيل لنا: لا جُنَاح عليكم ان صعدتُم القصر متجرّدين إذا أمسيتُم، أمّا عند الصبح فلا بدّ من الهُوِيّ في غَيابة الجُبّ.

(٧) وكان في قعر البئر ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[٢] «إذا أخرجنا أيدينا لم نَكَد نراها».

(٨) إلاّ إنّا في آونة المساء نرتقي القصر مُشرفين على الفضاء ناظرين من كوّةٍ. فربّما يأتينا حمامات من أيوك اليمن مُخبرات بحال الحِمَى، وأحياناً يزورنا بروق يمانيّة تومض من الجانب الأيمن الشرقي وتُخبرنا بطوارق نجد، ويزيدنا رياح الاراك وجداً على وجد. فنتحنّن ونشتاق إلى الوطن.

(٩) فبَينا نحن في الصعود ليلاً وفي الهبوط نهاراً، إذ رأينا الهدهد دخل من الكوّة مسلماً في ليلة قمراء، وفي منقاره رقعة صدرت ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) سورة القصص: الآية: ٣٠.

(١٠) وقال لنا: أنّي أحطتُ بوجه خلاصكما وجئتُكما ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١] وهو ذا مشروح في رقعة أبيكما.

(١١) فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها أنّه من الهادي أبيكما وأنّه: بسم الله الرحمن الرحيم. شوّقناكم فلم تشتاقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا، واشرناكم فلم تفهموا.

(١٢) وأشار في الرقعة إليّ بأنّك يا فلان! إن أردتَ أن تتخلّص مع أخيك، فلا تنيا في عزم السفر، واعتصما بحبلنا وهو جوزهر الفلك القدسيّ المستولي على نواحي الكسوف.

(١٣) فإذا أتيتَ ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾[٢] فانفض ذيلك، وقُل: **الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني**﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٣] وأهلك أهلك.

(١٤) واقتل امرأتك إنّها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾[٤] وامض حيث تؤمَر فـ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[٥] واركب في السفينة، وقُل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[٦].

(١٥) وشرح في الرقعة جميع ما هو كائن في الطريق، فتقدّم الهدهد وصارت الشمس فوق رؤوسنا إذ وصلنا إلى طرف الظلّ. فركبنا السفينة وهي تجري بنا ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[٧] ونحن نروم الصعود على جبل طور سينا، حتّى نزور صومعة أبينا.

(١٦) وحال بَيني وبَين وَلَدي ﴿ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٨]

(١٧) وعرفتُ أنّ قَومى ﴿مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٩]؟

(١٨) وعلمتُ أنّ ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ﴾[١٠] يُجعَل ﴿عَـٰلِيَهَا

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٨.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٢.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٦٦.
(٦) سورة هود، الآية: ٤١.
(٧) سورة هود، الآية: ٤٢.
(٨) سورة هود، الآية: ٤٣.
(٩) سورة هود، الآية: ٨١.
(١٠) سورة الأنبياء، الآية: ٧٤.

سَافِلَهَا﴾[١] ويمطر ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[٢].

(١٩) فلمّا وصلنا إلى موضع يتلاطم فيه الأمواج ويتدحرج المياه، أخذتُ ظئري التي أرضعتني وألقيتُها في اليمّ.

(٢٠) وكُنّا نسير في جارية ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[٣] فخرقنا السفينة خيفةَ ملك وراءنا ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٤].

(٢١) ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[٥] قد مرّ بنا على جزيرة يأجوج ومأجوج إلى الجانب الأيسر من الجودي.

(٢٢) وكان معي من الجن من يعمل بين يدي وفي حكمي عين القطر. فقلت للجن ﴿ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[٦] فجعلتُ سدّاً حتّى انفصلتُ عنهم.

(٢٣) وتحقّق ﴿وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[٧].

(٢٤) ورأيتُ في الطريق جماجم عادٍ وثمود، وطُفتُ في تلك الديار ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[٨].

(٢٥) وأخذتُ الثقلين مع الأفلاك وجعلتُها مع الجنّ في قارورةٍ صنعتُها أنا مستديرةً وعليها خطوط كأنها دوائر.

(٢٦) فقطعتُ الأنهار من كبد السماء.

(٢٧) فلمّا انقطع الماء عن الرحى، انهدم البناء، فتخلّص الهواء إلى الهواء.

(٢٨) وألقيتُ فلك الأفلاك على السماوات حتّى طحن الشمس والقمر والكواكب.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٢.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٣.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٧٩.
(٥) سورة الشعراء، الآية ١١٩.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٩٦.
(٧) سورة الكهف، الآية ٩٨.
(٨) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٢٩) فتخلّصتُ من أربعة عشر تابوتاً وعشرة قبور عنها ينبعث ظل الله، حتى يقبضني إلى القدس ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾[١] بعد أن جعل ﴿ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[٢].

(٣٠) ولقيتُ سبيل الله، فظننتُ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[٣].

(٣١) وأُختي وأهلي قد أخذتُها ﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٤] بياتاً فباتت في قطعٍ من الليل مظلماً، وبها حُمَّى وكابوس يتطرّق إلى صرعٍ شديدٍ.

(٣٢) ورأيتُ سراجاً فيه دهن وينبجس منه نور ينتشر في أقطار البيت، ويشعل مشكاتها سُكّانها من إشراق نور الشمس عليهم.

(٣٣) فجعلتُ السراج في فم تَنّينٍ ساكنٍ في برج دولاب تحته بحر قلزم وفوقه كواكب ما عرف مطارح أشعّتها إلاّ بارئها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[٥].

(٣٤) ورأيتُ الأسد والثور قد غابا، والقوس والسرطان قد طُويا في طيّ تَداور الأفلاك، وبقي الميزان مستوياً إذا طلع النجم اليمانيّ من وراء غيوم رقيقة متألّفة ممّا نسجته عناكبُ زوايا العالم العنصريّ في عالم الكون والفساد.

(٣٥) وكان معنا غَنَم، فتركناها في الصحراء، فأهلكتها الزلازل ووقعت فيها نارُ صاعقةٍ.

(٣٦) ولمّا انقطعت المسافة وانقرض الطريق ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[٦] من الشكل المخروط، فرأيتُ الأجرام العلويّة؛ اتّصلتُ بها وسمعتُ نغماتها ودستاناتها، وتعلمتُ انشادها، وأصواتُها تقرع سمعي كأنّها صوتُ سلسلة تُجَرُّ على صخرةٍ صمّاء، فتكاد تنقطع أوتاري وتنفصل مفاصلي من لذّة ما أنال. ولا يزال الأمر يتكرّر عليّ حتّى انقشع الغمام وتخرّقتِ المشيمة.

(٣٧) وخرجتُ من المغارات والكهوف حتّى تقضّيتُ من الحجرات متوجّهاً إلى عين الحيوة. فرأيتُ الصخرة العظيمة على قلّة جبلٍ كالطود العظيم. فسألتُ

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٦) سورة هود، الآية: ٤٠.

عن الحيتان المجتمعة في عين الحيوة المتنعّمة المتلذّذة بظلّ الشاهق العظيم: أنّ هذا الطود ما هو؟ وما هذه الصخرة العظيمة؟

(٣٨) فاتّخذ واحدُ من الحيتان سبيله في البحر سرباً. فقال «ذلك ما كُنتَ تبغى، وهذا الجبل هو طور سيناء، والصخرة صومعة أبيك». فقلتُ «وما هؤلاء الحيتان»؟ فقال أشباهُك، أنتُم بنو أبٍ واحدٍ، وقع لهم شبيهُ واقعِتك، فهُم أخوانك.

(٣٩) فلمّا سمعتُ وحقّقتُ، عانقتُهم؛ ففرحتُ بهم وفرحوا بي؛ وصعدتُ الجبل، ورأيتُ أبانا شيخاً كبيراً تكاد السماوات والأرض تنشقّ من تجلّي نوره. فبقيتُ باهتاً متحيّراً منه، ومشيتُ إليه، فسلّم عليّ، فسجدتُ له وكدتُ أنمحق في نوره الساطع.

(٤٠) فبكيتُ زماناً وشكوتُ عنده من حبس قَيرَوان. قال لي «نِعِماً! تخلّصتَ، إلاّ أنّك لا بدّ راجع إلى الحبس الغربيّ، وإنّ القيد بعد ما خلعته تامّاً». فلّما سمعتُ كلامه، طار عقلي وتأوّهتُ صارخاً صُراخ المُشرف على الهلاك، وتضرّعتُ إليه.

(٤١) فقال «أمّا العود فضروريّ الآن، ولكنّي أبشرك بشيئين: أحدهما أنّك إذا رجعتَ إلى الحبس، يمكنك المجيئ إلينا والصعود إلى جنّتنا هَيّنا متى ما شئتَ. والثاني أنّك تتخلّص في الأخير إلى جنابنا تاركاً للبلاد الغربية بأسرها مطلقاً».

(٤٢) ففرحتُ بما قال. ثمّ قال لي «اعلم أنّ هذا جبل طور سيناء. وفوق هذا جبل طور سينين مَسكن والدي وجدّك، وما أنا بالإضافة إليه إلاّ مثلك بالإضافة إليّ».

(٤٣) «ولنا أجدادٌ آخرون حتّى ينتهي النسب إلى الملك الذي هو الجدّ الأعظم الذي لا جدّ له ولا أب. وكلُّنا عبيده، به نستضييء ومنه نقتبس، وله البهاء الأعظم وله الجلال الأرفع والنور الأقهر، وهو فوق الفوق ونور النور وفوق النور

أزلاً وأبداً، وهو المتجلّي لكلّ شيءٍ، و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

(٤٤) فأنا في هذه القصّة، إذ تغيّر الحال عليَّ وسقطتُ من الهواء في الهاوية بين قومٍ ليسوا بمؤمنين محبوساً في ديار المغرب. وبقي معي من اللذّة ما لا أطيق أن أشرحه. فانتحبتُ وابتهلتُ وتحسّرتُ على المفارقة. وكانت تلك الراحة أحلاماً زايلةً على سرعةٍ.

(٤٥) نجّانا الله من أسر الطبيعة وقيد الهيولي! ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1] و ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] والصلوة على نبيه وآله أجمعين.

تمت قصّة الغُربة الغربيّة

(١) سورة النمل، الآية: ٩٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.